حب بقناع



عبدالصمد الزواني

حب
بقناع

عنوان الكتاب :حب بقناع

تأليف :عبدالصمد الزواني

ملاحظة :الآراء والأفكار الواردة في الكتاب تمثل وجهة نظر المؤلف.

"الرجال الذين يشعرون بعمق حقيقي كثيرًا ما يكونون الأصعب في التعبير، ليس لأنهم لا يشعرون، بل لأنهم يشعرون أكثر مما يعرفون كيف يقولونه".

عزيزتي،

لم أتمكن من وداعك حين اقترب الرحيل، قد أكون بدوت قاسيًا أو فظًا، ولكن من يتمتع بشخصية مريضة كما أملكها لن ترينه قط في حالة هلع، صدقيني لم أغضب بشأن أي شيء فالغضب ما هو إلا آلية للبقاء أو الحماية ضد كل ما هو مفترس وأنت لم تكوني كذلك.

أعلم جيدًا كل تساؤل تطرحينه، ولو كان بالإمكان الحصول على مئة جواب لقدمته لك، لكن سرعان ما أشعر بالملل، وكما يفعل المريض عادة بدأت أتنقل بشكل عشوائي عبر الصفحات، ثم وقعت عيني على شيء ما كتابة في كتل من الحروف الكبيرة أذكر منها أنك لا تعرفين بالضبط كيف يبدو السطح، وصدقيني أنتِ كنت من الأشخاص المحظوظين.

سأذكر لك قصة رجل كانت روحه تحت النار.... كانت دوائرها تظهر بشكل بائس ولكنه استمر بالمقاومة، يقاوم في وابل من الاستهتار الذي لا يمكن كبحه. البهجة والعروض الهزلية التي أقدمها، فمن يهتم إذا كان هذا كله مجرد هراء؟

عزيزتي، خلف الأبواب المغلقة واجهت نصيبي العادل

من شخصية معدوم الضمير الذي كان بإمكانه أن يتناول العشاء على مائدة معدوم الرحمة، ولكن كي أدعوك لعشاء كهذا وجدت أنني لم أكن رائعًا، ففي أعماقي يكمن سفاح في مكان ما لكنني أبقيه مستمتعًا بأشياء تبعده عن الحافة. ربما ينمو الناس كالنباتات في الضوء أما أنا فقد نموت في الظلال، وما أنا بداخلي يحتاج إلى إدراك عظمة المعنى واتساعه ودائمًا ما يقودني هذا للجنون او الوحدة.

وجدت أن الكل يبحث عن طريقه وأتمنى لكل شخص أن يسير في طريقه الخاص، لذلك كنت صبورًا على عجز العالم ولم أبالغ بتقدير جماله الباهر، تركت القوة تقف ضد القوة، والاحتقار ضد الاحتقار، والحب ضد الحب.

عزيزتي لا تسامحيني.

اذكر جيدا في ليلة قارسة البرودة، فتحت عجوز بوجه يقطر لطافة باب شقتها، والتفتت لتودع ابنها بكلمات دافئة وهي تبتسم:

"سأذهب لأشتري بعض الزهور يا عزيزي، سأعود خلال ساعة، إنه موسم المطر، كم أنا سعيدة !"

لكن ما إن استدارت وواجهت الممر الخارجي للمبنى، حتى تبدد ذلك الوجه البشوش في لمح البصر، وحلت محله ملامح الاشمئزاز المطلق، لدرجة جعلتها تتراجع فورًا وتغلق باب شقتها وراءها بسرعة، كأنها هربت من كابوس مفاجئ.

في ذلك الممر الخارجي، كنت واقفًا بوجه عابس وشرود مزعج، أتذكر أني كنت عبئًا ثقيلًا على كل من يقاطعني في طريق الحياة. في تلك اللحظة لمحت كلبًا صغيرًا يدخل للعمارة من الباب المفتوح.

قلت:

" تعال إلى هنا يا حبيب.... تعال"،

لكن الكلب الصغير تجاهلني تمامًا وراح يشم بقعة ما على سجادة الرواق.

تقدمت نحوه بخطوات مباغتة، وفي اللحظة التي انقضضت فيها لأحمله، رفع الكلب ساقه ليتبول على جدار الرواق، بينما أطلق الكلب نباحًا متوحشًا يعكس روحًا مشاحنة مماثلة لروحي، صحت بتهديد:

"لقد تبولت على طابقك الأخير أيها القرد ذو الأذنين".

حاول الكلب عضّي، لكنني كنت أسرع، فأمسكت بخطمه بيدي بقوة، ومددت يدي الأخرى لفتح باب العمارة ثم تركته خارجها وأغلقت الباب. وقلت له:

"أراهن أنك تتمنى لو كنت كلبًا حقيقيًا الآن، أليس كذلك؟ لا تقلق، إن استطعت النجاة هنا، فسوف تنجو في أي مكان....".

في تلك اللحظة انفتح باب شقة مجاورة، واندفع منه أحد الجيران رجل أربعيني نشأ وسط أهوال وتجارب قاسية حين كان جنديًا، لكن التراجيديا صنعت منه شخصًا لطيفًا وموهوبًا، هرع إلى الممر وهو ينادي بذعر على كلبه، فصاح مستفسرًا إليّ:

"عفوًا، ألم تر كلبي".

سألته: "كيف يبدو؟".

وعندما حاول وصفه قلت:

"كل ما أعرفه أنه لطالما تبقي عملك ومسائلك مغلقة بعيدًا عني، فلا يهمني أين نضع بضاعتك. هل نبقى جيرانًا الآن؟".

شعر الرجل، الذي يكره الصدام بطبعه، بأن الكيل قد طفح، فوقف أمامي مباشرة وقال بحسم:

"أنت لا تحب شيئًا".

أغلقت الباب بعد دخولي لمنزل والدي وتركته وحيدًا، ثم أجبته من وراء الباب:

"أنا أحببت يوما لكنه قد مضى!".

داخل الشقة دخلت لغرفة نومي لأفرغ من توضيب بعض الكتب، قفلت الباب وفتحته خمس مرات تقريبًا، ثم أطفأت الأنوار خمس مرات متتالية بسرعة ونظام دقيق.

اتجهت مباشرة نحو الحمام، وفتحت الماء الساخن، بعدها تفقدت خزانة الأدوية التي كانت تضم صفوفًا مرتبة بعناية فائقة.

أخرجت بعض الصابون وبدأت أغسل يدي به.

على الجانب الآخر، في مدخل العمارة ومن خلال النافدة لمحت بعض الضيوف يتدفقون للداخل، يتبعهم عامل الصيانة الذي كان يحمل الكلب الصغير بين يديه.

لمح الرجل الأربعيني الكلب، فأشرق وجهه وتهلل، واغرورقت عيناه بالدموع وهو يهرع نحوه صارخًا بفرحة عارمة:

"أشكر الله... يا حبيبي.. أين كنت؟"

التقط كلبه الصغير، وأخذ يقبله على فمه باسترخاء بينما سأله عامل الصيانة بابتسامة ماكرة:

"هل تعلم أين وجدته يا سيدي؟ في حاوية قمامة يأكل فضلات الحفاضات!".

تجمد الرجل في مكانه من الصدمة، ثم نظر إلى العامل الذي كان يحاول جاهدًا كتم ضحكته، فسأله بذهول:

"كيف وصل إلى القمامة؟ ... كيف؟"

فأجاب عامل الصيانة بخبث وهو يلقي تلميحه الأخير:

"ربما اخرجه بعض الجيران اللطفاء".

اتسعت عينا الرجل رعبًا وهو يستوعب الفظاعة، بينما وقف محتارًا، متسائلًا هل أنا من قمت بهذا الفعل الشنيع؟

أغلقت النافدة، وتفرغت لبعض العمل رغم ان ساعات عملي تميل الى ان تكون اكتر أوقات اليوم خلوا من المشاكل.

وكما أفعل دائماً بعد الانتهاء من العمل أخرج للنزهة قليلاً، كنت كلما أمرّ من الزقاق يظهر لي كل منزل راكداً تماماً، أحاول أن أتجنب الناس إلى أن أسمع تحية:

"مرحباً، هل أنت بخير؟"،

كنت دائماً ما أُجيب بعبارات مقتضبة وقصيرة:

"نعم، شكراً"، وبابتسامة شاحبة.

أتذكر أني في هذا اليوم لمحت صديقاً يبيع كمية كبيرة من المفكرات في سوق الخردة الذي يقع في الطرف الشرقي للمدينة. كانت المفكرات التي أشير إليها تهمّ هواة جمع الأشياء النادرة، وكان مكتوباً أمامها إعلان عن فترة تدريبية تمتد لشهر كامل:

"أيها الناس! إنها فرصة فريدة للحصول على فترة تدريبية في أحد المراكز، اشتركوا الآن."

كنت أتمتع بشخصية مثالية تناسب العرض، وأدركت أنها فرصة للخروج من بعض المعاناة .بعد أن قمت بالتسجيل، قيل لي إنه يجب عليّ الالتحاق في الصباح الباكر، وبدا أن هناك معسكراً من الأشغال المرتبطة بمركز للأبحاث السلوكية والنفسية في جنوب المدينة . في اليوم التالي، نهضت من السرير في تمام الساعة السادسة صباحاً، صنعت سندويشاً من الخيار، وحضّرت كوباً من الشاي، وسرعان ما جعلني شيءٌ ما أشعر بحماس مطلق لأول مرة.

وصلتُ إلى المركز قبل الموعد بعشرين دقيقة، لا لأنني أهتم بالانضباط، بل لأنني أكره الوقوف وسط حشدٍ يتجمّع فجأة في اللحظة الأخيرة، أصوات، أنفاس، أعذار تأخير سخيفة، كل هذا يزعجني.

كان المبنى رماديًا باردًا كأنه صُمّم ليُشعر الداخل إليه أنه تحت الملاحظة قبل أن يخطو خطوته الأولى. جلستُ في القاعة الرئيسية، على مقعدٍ في الطرف، ووضعتُ حقيبتي على ركبتي كحاجز غير مرئي بيني وبين من قد يقترب.

دخلت هي بعد دقائق قليلة.

لم ألاحظها لجمالٍ لافت أو حضورٍ صاخب، بل لشيء أدق من ذلك: كانت تمشي بثقةٍ هادئة، من النوع الذي لا يحتاج أن يثبت نفسه لأحد، ونظرت حولها بحثًا عن مقعد، ثم من بين كل الأماكن الفارغة اختارت الكرسي المجاور لي.

قالت وهي تجلس:

"هل هذا المقعد محجوز؟"

قلت دون أن أرفع رأسي بالكامل:

"لا أحد يحجز الكراسي هنا، هذا ليس مسرحًا."

ابتسمت، ليس ابتسامة مجاملة، بل شيء أقرب لضحكة مكتومة سمحت لنفسها بها. قالت:

"ملاحظ جيد إذن."

لم أجب. كنت أراقبها من زاوية عيني، أحاول أن أصنّفها ضمن الفئات التي اعتدت تصنيف الناس فيها:

الخائفون، المتصنّعون، الباحثون عن انتباه، اللامبالون. لكنها لم تدخل في أي منها بسهولة، وهذا أزعجني قليلًا.

بدأ المشرف حديثه عن برنامج التدريب، عن أهداف المركز في دراسة السلوك، عن "أهمية الملاحظة الدقيقة للتفاعلات الإنسانية الصغيرة"

كلام أكاديمي معتاد لم يهمني منه شيء، لكنها كانت تدوّن ملاحظات بجدية غريبة، كأن كل كلمة تستحق أن تُحفظ.

سألتها همسًا، لا لأنني أهتم فعلاً بل لأرى كيف تتفاعل:

"هل تصدّقين كل هذا الكلام عن 'التفاعلات الصغيرة'؟"

نظرت إليّ مباشرة، وهذا ما لفت انتباهي أكثر من أي شيء آخر في ذلك اليوم؛ معظم الناس حين تسألهم سؤالًا كهذا يتجنبون عينيك، أما هي فنظرت بثبات وقالت:

"أصدّق أن أصغر التفاصيل غالبًا ما تكشف عن أكبر الحقائق. أنت مثلًا جلست في الطرف، بعيدًا عن الباب وعن الجميع، ووضعت حقيبتك كحاجز. هذا تفاعل صغير، أليس كذلك؟"

لم أرد فورًا. لم يكن أحد قد قرأني بهذه السرعة من قبل، أو ربما كان أحدهم قد فعل، لكنني لم أسمح له بأن يقول ذلك بصوت عالٍ.

قلت أخيرًا:

"ربما أحب الهدوء فقط."

قالت وهي تعود بنظرها إلى المشرف:

"ربما."

لم تكن تلك الكلمة اتهامًا ولا مجاملة، كانت ترك الباب مواربًا فقط، وهذا بالتحديد ما جعلني أنتبه لها أكثر مما ينبغي.

انتهى اليوم التدريبي عند الخامسة، وخرج الجميع في تلك الفوضى المعتادة التي يخلقها البشر حين يجتمعون في مكانٍ واحد ثم يتفرقون فجأة، كأن كل واحدٍ منهم يستعجل العودة إلى قناعه الحقيقي بعد أن أنهكه ارتداء القناع الاجتماعي طوال النهار.

بقيتُ في الممر الخارجي للمركز، أدخّن سيجارة لم أكن أرغب بها حقًا، بل احتجتُ فقط إلى شيءٍ تشغل به يداي ريثما يخلو المكان من الناس. أنا لا أحب أن يراني أحد وأنا أهمّ بالمغادرة، فثمة شيء مهين في أن يشاهدك الآخرون تمشي وحيدًا، وكأنهم يقرؤون في ظهرك المنحني كل وحدتك التي حاولت طوال النهار إخفاءها خلف سخريةٍ باردة.

وبينما كنت أراقب دخان السيجارة يتلوى في الهواء البارد ثم يتلاشى دون أن يترك أثرًا تمامًا كأغلب أفكاري سمعت خطواتٍ خفيفة تقترب.

لم أحتج إلى الالتفات لأعرف أنها هي؛ كان هناك إيقاعٌ معين في مشيتها بدأت ألاحظه ، وهذا بحد ذاته أزعجني، فأنا لا أحب أن ألاحظ أي شيء يخص أحدًا، فالملاحظة بداية الارتباط، والارتباط بداية كل شيء أخشى أن أعترف بخوفي منه.

قالت: "لم تغادر بعد؟"

قلت دون أن ألتفت: "ولا أنتِ."

ضحكت ضحكة قصيرة، ثم وقفت بجانبي، تنظر إلى الشارع الفارغ أمامنا كما لو أنها تبحث فيه عن شيء لم تجده بعد. سألتني:

"هل تدخّن دائمًا وأنت تفكر، أم أن التفكير هو ما يدفعك للتدخين؟"

سؤالٌ غبي في ظاهره، لكنه أصابني في مكانٍ لم أكن أتوقعه. الحقيقة التي لم أقلها لها بالطبع أنني لا أفكر أبدًا حين أدخّن، بل أهرب من التفكير، فالتفكير عندي ليس تلك العملية الهادئة المرتبة التي يتحدث عنها الناس، بل

هو أشبه بغرفةٍ مظلمة كثيرة الأبواب، كل باب يفتح على مرآة، وكل مرآة تعكس وجهًا لي لا أعرفه، ولا أريد أن أعرفه، فالإنسان كما أظن لا يُطارَد من الخارج بقدر ما يُطارَد من ذاته، من تلك الأصوات الداخلية التي

لا تكفّ عن سؤاله: من أنت حقًا خلف كل هذه الأقنعة التي ترتديها بمهارة؟

قلت لها بدلًا من كل ذلك:

"أدخّن لأن العادات الرديئة أوفى من الناس. هي لا تخذلك، ولا تنظر إليك بازدراء إن انكشفتَ أمامها."

نظرت إليّ بذلك النظر الذي بدأت أخشاه، ذلك النظر الذي لا يحاول أن يفهمك بقدر ما يحاول أن يرى ما تحاول أنت إخفاءه. قالت:

"هذا كلامٌ حزين لشخص يبدو واثقًا جدًا من نفسه."

فكّرت في تلك اللحظة أن أضحك، أن أسخر من ملاحظتها كما اعتدت أن أفعل مع كل من يقترب أكثر من اللازم، لكن شيئًا ما في داخلي شيء صغير، خافت، كاد أن يُنسى من فرط إهماله رفض أن يسخر هذه المرة. ولعل هذا هو أخطر ما في الأمر: أن الإنسان الذي اعتاد الكذب

على الجميع، قد يقع يومًا فريسة كذبته هو نفسه أمام من لا يستحق أن يُخدع.

قلت أخيرًا، بصوتٍ أكثر هدوءًا مما قصدت:

"الثقة والحزن أحيانًا وجهان لعملة واحدة، لكن لا أحد يكلّف نفسه عناء قلبها ليرى الوجه الآخر."

صمتت قليلًا، ثم قالت:

"ربما أنا أحب أن أقلب العملات."

لم أجب. أطفأت السيجارة بكعب حذائي، ونظرت إلى الأفق البعيد في ذلك اللون الرمادي الذي يبدو دائمًا وكأنه يحتضر ببطء، تمامًا كما يحتضر شيء ما بداخلي كل مرة يقترب فيها أحدهم من الحقيقة أكثر من اللازم.

قلت وأنا أستدير للمغادرة: "إلى الغد إذن."

قالت: "إلى الغد."

وبينما كنت أبتعد، شعرت بنظراتها تلاحقني حتى انعطفت في الزاوية، وفي تلك اللحظة بالذات، أدركتُ حقيقة مزعجة لم أكن مستعدًا لمواجهتها: أنني، للمرة الأولى منذ زمنٍ طويل، كنت أتحرّق شوقًا لرؤية الغد.

اليوم التالي، وصلتُ قبل الموعد بنصف ساعة هذه المرة، لا عشرين دقيقة كما في اليوم الأول. لاحظتُ ذلك بنفسي وأزعجني: لماذا نصف ساعة؟ هل تغيّر شيء في داخلي بين ليلةٍ وأخرى، أم أن الأمر مجرد صدفة لا تستحق كل هذا التحليل الذي أفرضه على كل تفصيلة تخصّني؟ الحقيقة أنني لم أنم جيدًا؛ ظللتُ مستيقظًا حتى ساعة متأخرة أراجع في ذهني ذلك الحوار التافه عن السجائر والعملات، أقلّبه كما تُقلَّب الأشياء التي لا

تستحق كل هذا الاهتمام، وهذا وحده كان كافيًا ليثير شكوكي في نفسي.

جلستُ في المقعد ذاته، بجانب الكرسي الفارغ، وانتظرت.

دخلت أخيرًا، وحين رأتني ابتسمت ابتسامة عابرة، عادية، لا تحمل من الخصوصية شيئًا أو هكذا بدت لي وجلست، لكن ليس بجانبي هذه المرة، بل على بعد كرسيّين، إلى جانب فتاة أخرى بدأت تتحدث معها بحيوية عمّا فاتها في اليوم السابق.

شعرتُ بشيء يشبه اللدغة، خفيفة لكنها حاضرة، تسري في مكانٍ ما تحت الصدر. لم أفهمه في حينه، أو ربما فهمته ورفضت أن أسمّيه، فالإنسان بارع في خداع نفسه

حين يتعلق الأمر بالاعتراف بأنه يريد شيئًا يخشى ألا يستحقه.

قلتُ لنفسي: "دعها. لا شأن لك بمن تجلس بجانبه." لكن جزءًا آخر مني، جزءًا لم أكن أعرف أنه موجود أصلًا حتى تلك اللحظة، راح يهمس بلؤمٍ مضاد: "أنت من ابتعد بالأمس بلا سبب، أنت من أطفأ السيجارة وغادر دون أن يطيل الوقوف، فلماذا تنتظر منها الآن أن تظل واقفة عند الباب الذي أغلقتَه أنت بنفسك؟"

هذا هو بالضبط ما يجعلني أزدري ذاتي أحيانًا: أنني أعرف نفسي جيدًا، أعرف كل حيلها ومكرها الصغير، وأعرف أيضًا أنني عاجز عن كسر هذه الحلقة، فأنا أهرب من كل من يقترب، ثم أتألم حين يرحل، وكأن الألم نفسه صار جزءًا لا يتجزأ من متعتي الغامضة، متعة الشعور بأنني حيّ، أنني ما زلت أشعر بشيء وسط كل هذا الخدر الذي يغلّف حياتي.

في الاستراحة، خرجتُ وحدي كعادتي إلى الممر، وهناك بلا سابق إنذار جاءت نحوي بخطوات هادئة، وكأنها تعرف تمامًا أنني سأكون هناك.

قالت: "هربتَ اليوم إلى مقعدٍ بعيد، ألاحظ ذلك أيضًا كما تلاحظ أنت أشياء الناس."

قلت، محاولًا أن أبدو غير مبالٍ:

"لم أهرب. جلستُ في المكان الذي كان متاحًا."

قالت وهي تبتسم بذلك الشك اللطيف الذي بدأ يصير سمة مميزة في وجهها:

"أعرف أنك تكذب، لكن لا بأس، فالكذبة الصغيرة أحيانًا تخبرني عن الحقيقة أكثر مما تفعل الحقيقة ذاتها."

نظرتُ إليها طويلًا، وفكّرت بشيء من الرعب الصامت الذي لا يراه أحد أن هذه الفتاة، بلا قصدٍ منها ربما،

بدأت تمسك بخيوط لعبةٍ لم أخترها أنا، لعبةٍ اعتدت أن أكون فيها اللاعب الوحيد الذي يمسك بكل الخيوط، يشدّها ويرخيها كما يحلو له، دون أن يُصاب هو نفسه بخدشٍ واحد.

وربما، في تلك اللحظة بالتحديد، بدأت القصة الحقيقية: ليس قصة كيف سأتلاعب بها، بل قصة كيف بدأت هي، بلا أن تدري، تتلاعب بالجزء الوحيد فيّ الذي ظننته ميتًا منذ زمن بعيد.

مرّت الأيام التالية بشكلٍ مختلف عمّا اعتدته من قبل. لم أعد أهرب منها كما فعلت في البداية، بل بدأت ألعب

لعبة أدق وأكثر دهاءً: أقترب حتى تشعر بالدفء، ثم أنسحب فجأة دون تفسير، أترك فراغًا بقدر ما تركتُ من قربٍ قبل لحظات، وأراقب كيف تحاول هي ملء ذلك الفراغ بنفسها.

جلستُ بجانبها عمدًا، وتحدثنا طويلًا عن أشياء لا قيمة لها ظاهريًا كتاب قرأته، مدينة تمنّت زيارتها لكنني كنت أصغي بانتباه محسوب بدقة، أومئ في اللحظة المناسبة، أطرح سؤالًا يبدو وكأنه ينبع من اهتمامٍ عميق بها وحدها، بينما في داخلي كنت أراقب نفسي وأنا أفعل ذلك، كطبيبٍ بارد يراقب تجربته الخاصة.

قالت في لحظة صمتٍ عابرة:

"لا أعرف لماذا أشعر أنني أستطيع أن أتحدث معك عن أشياء لا أخبر بها أحدًا."

قلت، وأنا أختار كلماتي:

"ربما لأنني لا أحكم عليك مثلما يفعل الآخرون."

وهي جملة صادقة في ظاهرها، لكنها في جوهرها كانت حجرًا أضعه بعناية في جدارٍ أبنيه بيني وبينها، جدارٌ يبدو من الخارج جسرًا.

في اليوم التالي، تجاهلتها تمامًا. ، لكنني أردتُ أن أرى بذلك الفضول البارد الذي لا يفارقني كيف سيبدو وجهها حين تبحث عني بعينيها فلا تجدني منتبهًا. رأيتها، من طرف عيني، تنظر نحو مقعدي أكثر من مرة، ثم تعود لدفترها بسرعة كمن ضُبط متلبسًا بشيء لا يريد الاعتراف به.

في الاستراحة، جاءت إليّ كما توقعتُ تمامًا، فهذا جزءٌ مما يجعل الأمر يشبه لعبة الشطرنج أكثر من كونه علاقة وسألت بنبرة حاولت أن تبدو عابرة:

"هل كل شيء بخير؟ بدوتَ بعيدًا اليوم."

قلت ببرود مدروس:

"أنا دائمًا بعيد، هذا ليس جديدًا."

لكنه كان جديدًا، وكلانا يعرف ذلك. كانت هذه هي المرة الأولى التي أمنحها فيها هذا البعد المفاجئ بعد قربٍ متعمّد، وكنت أعرف، بذلك اليقين البارد الذي أمقته في نفسي، أن هذا التناوب قرب، ثم بعد، ثم قرب أعمق سيجعلها تبدأ بالتساؤل: هل الرابط بيننا حقيقي، أم مجرد ظل أوهمها به شخص بارع في صناعة الظلال؟

المشكلة الوحيدة، التي لم أكن مستعدًا لها، أنني بدأت ألاحظ شيئًا يتسلل إليّ أنا أيضًا وسط كل هذا الحساب البارد: لحظات صغيرة أفقد فيها السيطرة على المسافة

التي أحسبها بدقة، ابتسامة أطلقها دون تخطيط مسبق، سؤال أطرحه لأنني أريد الجواب فعلاً لا لأنه جزء من اللعبة.

وربما هذا بالضبط ما يجعل القصة التي أرويها لكِ الآن، يا عزيزتي، مؤلمة أكثر مما تتخيلين: أنني بدأت ألعب دورًا ظننته آمنًا، دور المتلاعب البارد الذي لا يُصاب، ثم اكتشفتُ متأخرًا جدًا أنني، وسط كل تلك الخيوط التي كنت أظن أنني أُمسك بها وحدي، كنت أنا أيضًا أُشدّ من طرفٍ لا أراه.

بدأت أبحث عن ذرائع صغيرة لأقترب منها دون أن يبدو الأمر كأنه اقتراب مقصود، كما تعلّمتُ من نفسي على مدى سنوات طويلة من ممارسة العزلة كفنٍّ خاص بي لا يطلب القرب مباشرة، بل يصنع الظروف التي تجعل القرب يبدو حتميًا، بريئًا، بل ومُلحًّا من الطرفين معًا.

في أحد الأيام، رأيتها تُصارع تقريرًا مطلوبًا منها حول ملاحظاتها الميدانية، تُقلّب أوراقها بتوتر ظاهر، وتمحو ثم تكتب ثم تمحو مجددًا. اقتربتُ ببطء، لا كمنقذٍ متحمس بل كمن يمرّ صدفة، وقلت:

"تبدين وكأنكِ تحاربين ورقة لا تستحق كل هذا العناء."

رفعت رأسها بامتنانٍ فوري لم أكن أتوقع أن أستمتع به بهذا القدر، وقالت:

"لا أعرف كيف أُنظّم الملاحظات، كل شيء يبدو مبعثرًا في رأسي."

جلستُ بجانبها، وأخذتُ الورقة، لا لأنني أهتم فعلًا بمساعدتها فالإنسان الذي أنا عليه لا يُحرّك ساكنًا من أجل الآخرين دون مقابل خفي يُرضي شيئًا بداخله بل لأن هذا بالتحديد ما كنتُ أحتاجه: أن أصبح ضروريًا لها، ولو لساعة واحدة، أن أزرع في داخلها فكرة أنني حين أقترب، تصبح الأمور أوضح، أهدأ، أكثر احتمالًا.

قلت وأنا أعيد ترتيب أفكارها على الورقة بخط يدي:

"أنتِ لا تحتاجين إلى تنظيم الملاحظات، بل تنظيم الثقة بأن ملاحظاتك تستحق أن تُقال."

نظرت إليّ بذلك النظر الذي بدأ يُربكني أكثر فأكثر كلما تكرر، وقالت بهدوء:

"لماذا تقول أشياء كهذه؟ أشياء تجعلني أشعر أنك تراني أكثر مما أرى نفسي."

لم أُجب فورًا. الحقيقة أن جوابي الصادق لو سمحتُ لنفسي بقوله كان سيكون: "لأنني أتقن قول ما يجعل الأرواح الجائعة للاعتراف تنحني قليلاً نحوي." لكنني بدلًا من ذلك، ابتسمتُ ابتسامة غامضة، تركتها تُفسّرها كما تشاء، فالصمت المحسوب أقوى سلاحٍ يملكه من يُتقن اللعبة، إذ يترك في الآخر مساحة فارغة يملؤها بأجمل الاحتمالات عن نفسه.

بعد أيام قليلة، ساعدتها مجددًا، هذه المرة في مهمة ميدانية تطلبت منها إجراء ملاحظة سلوكية خارج المركز. تطوّعتُ لمرافقتها دون أن تطلب، وقلت بلا مبالاة مصطنعة:

"لا بأس، لديّ وقت فارغ على أي حال."

في الطريق، تحدثنا عن أشياء أعمق مما اعتدنا، عن الخوف، عن الوحدة، عن معنى أن يشعر الإنسان بأنه غريب حتى في منزله. كانت تتحدث بصدق يُخجل صدقي المزيّف، وكنت أستمع، وأومئ، وأزرع بين الحين والآخر جملة مدروسة بعناية تجعلها تظن أنني أفهمها كما لم يفهمها أحد.

قالت في لحظة توقّف مفاجئ:

"أشعر أحيانًا أنك تعرف عني أشياء لم أخبرك بها بعد."

قلت، وأنا أراقب كيف تتوهج عيناها كلما اقتربتُ من الكشف عن "فهمٍ" مصطنع لدواخلها:

"ربما لأن بعض الأرواح تتحدث بلغة لا تحتاج إلى كلمات."

كانت جملة جميلة، مؤثرة، وكاذبة تمامًا في نيتها، وإن كانت صادقة تمامًا في وقعها.

لكن ما لم أخبرها به، وما بدأ يُقلقني أنا شخصيًا في هدوء الليل حين أستلقي وحدي أُعيد شريط اليوم، أن تلك الجمل التي أختارها بدقة الجرّاح لتُصيب هدفها في قلبها، بدأت تُصيبني أنا أيضًا في مكانٍ لم أعتقد أنه ما زال قابلًا للإصابة. كنتُ أصف نفسي دائمًا كطبيبٍ بارد يُجري تجربته، لكن أي طبيبٍ هذا الذي يبدأ، دون أن يشعر، بالتعلّق بمريضته أكثر مما يتعلق بنتيجة تجربته؟

هذه، يا عزيزتي، كانت البداية الحقيقية لسقوطي: ليس اللحظة التي بدأتُ فيها ألعب بمشاعركِ، بل اللحظة التي اكتشفتُ فيها، متأخرًا كعادتي في كل شيء يستحق أن يُكتشف في وقته، أنني لم أعد ألعب وحدي.

في اليوم التالي لاحظتُ ظهور شخص معها، ولم أُعره كبير اهتمام في البداية، فالإنسان الذي أنا عليه لا يمنح انتباهه بسهولة إلا لما يستحق أن يُدرَس، وهذا الشاب

بضحكته العالية ونكاته الرخيصة بدا لي في حينه مجرد ضجيج عابر، من ذلك النوع الذي يملأ الفراغات في حياة من لا يحتملون الصمت.

رأيتها تضحك معه في الاستراحة، ضحكة عالية، مفتوحة، تُشبه تلك التي يمنحها المرء حين لا يفكر إطلاقًا فيما يُظهره من نفسه.

جلستُ على مسافة، أُدخّن بهدوء رجل لا يعنيه شيء مما يجري حوله، ووجهي كما تعلّمتُ أن أُشكّله على مدى سنين طويلة من التمرّس على إخفاء كل شيء لم يخنّي بحركة واحدة.

اقترب هو، مازحًا كعادته، وقال شيئًا سخيفًا عن المصعد العالق، وضحكت هي حتى اضطرت لمسح دمعة صغيرة من عينها. لم أتحرك، لم أُغيّر نبرتي، ولم أقترب لأُفسد المشهد كما تفعل الشخصيات الضعيفة حين تشعر بالتهديد. بل واصلتُ حديثي مع شخص آخر بجانبي بلا مبالاة حقيقية، ليست مصطنعة هذه المرة في ظاهرها، بل باردة كطبيعتي الأصلية التي لا تحتاج لجهد كي تبدو غير مكترثة.

لكن، وهنا تكمن المفارقة التي لم أفهمها إلا لاحقًا، حين التقت عيناي بعينيها للحظة عابرة وسط ضحكتها، لم

أجد فيهما ذلك البريق الذي يبحث عادة عمّن يغار، بل وجدتُ شيئًا أدقّ من ذلك بكثير: ترقّبًا. كأنها لا تضحك

من أجل الضحك، بل تضحك وهي تراقبني من طرف عينها، تنتظر أن ترى إن كانت ستهزّني تلك الصورة، إن

كنتُ سأتزحزح ولو قيد أنملة عن ذلك الجدار البارد الذي بنيتُه حولي بعناية.

لم أتزحزح.

في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، حين خفّ الزحام وابتعد الجميع، جاءت إليّ وسألت بنبرة حاولت أن تبدو عابرة:

"لم تبدُ منزعجًا اليوم."

قلت ببرود:

"من ماذا كان يجب أن أنزعج؟"

نظرت إليّ طويلًا، وكأنها تُعيد حساباتها، ثم قالت:

"لا شيء. كنت فقط أتساءل."

لم أُجب، فالصمت هنا كان أبلغ من أي كلمة، لكنني - وهذا ما أعترف به لكِ وحدكِ يا عزيزتي، في هذه الرسالة التي لن تُقرأ إلا بعد فوات كل شيء فهمتُ في تلك اللحظة بالضبط ما كانت تفعله: لم يكن ذلك الشاب سوى أداة،

مرآة صغيرة وضعتها هي أمامي لترى انعكاسي فيها، اختبارًا صامتًا لتتأكد إن كان ما بيننا في نظري أنا حقيقيًا بقدر ما هو حقيقي في نظرها، أم أنه مجرد لعبة أتقنتُ أنا وحدي قواعدها.

وربما هذا بالضبط ما جعلني أرتبك أكثر مما توقعت، لا لأنني غِرتُ، بل لأنني أدركتُ أن الطرفين في هذه القصة

كانا يلعبان اللعبة ذاتها في آنٍ واحد، كلٌّ منهما يظن أنه الوحيد الذي يُمسك بالخيوط، بينما كان كلانا، في الحقيقة، مُمسكًا بخيطٍ واحد يشدّه من طرفيه دون أن يشعر.

لم يكن قرارًا معلَنًا، لم يجلس أحدنا مع الآخر ليقول: "لنبتعد الآن"، فمثل هذه الأمور، كما لاحظتُ دائمًا في حياتي، لا تُعلَن أبدًا، بل تحدث بذلك الصمت الخبيث الذي يتسلل بين البشر كالرطوبة في جدارٍ قديم، دون أن يراه أحد، حتى يجد الإنسان نفسه يومًا واقفًا أمام هوّةٍ لا يذكر متى بدأت باتساعها.

في اليوم التالي لذلك المشهد مشهد ضحكتها المفتوحة، ودمعتها الصغيرة، وترقّبها الخفي لي من طرف عينها وجدتُ نفسي، بلا تخطيط مسبق، أختار قاعة عمل مختلفة عن قاعتها. أخبرتُ المشرف أنني أفضّل دراسة

الحالات المرتبطة بالسلوك الانطوائي في القاعة الشرقية، وهو عذرٌ منطقي تمامًا، بل ومقنع، لدرجة أنني كدتُ أُصدّقه أنا نفسي لثوانٍ معدودة قبل أن أتذكّر أنني من اخترعه.

الحقيقة، التي لا أقولها لأحدٍ سواكِ يا عزيزتي، أنني لم أبتعد لأنني لا أريد رؤيتها، بل بالضبط لأنني أردتُ رؤيتها أكثر مما يليق برجلٍ يزعم أنه لا يحتاج إلى أحد. فالإنسان، كما اكتشفتُ متأخرًا وبمرارةٍ لا تُضاهى، حين يخشى رغبته، لا يقتلها، بل يُقنّعها بنقيضها، ويُسمّي الهروب حكمة، والجُبن مسافةً صحية، والخوف من الاعتراف نضجًا.

في القاعة الشرقية، جلستُ أمام ملفات حالات لا تعنيني حقًا، أُقلّب أوراقها دون أن أقرأ فعلًا، بينما أذني تلك الأداة الخائنة التي لا تُطيع أوامر العقل كانت مشدودة نحو الممر، تلتقط كل صوتٍ يشبه صوتها، كل ضحكة عابرة قد تكون ضحكتها، ثم أكتشف في كل مرة أنني كنتُ مخطئًا، وأشعر بخيبةٍ سخيفة لا تليق بمن يدّعي أنه فوق كل هذا.

مرّت ثلاثة أيام على هذا النحو: هي في قاعتها، وأنا في قاعتي، كلانا يُتقن دور المنشغل الذي لا وقت لديه

لالتفاتٍ عابر، وكلانا وهذا ما أدركتُه لاحقًا حين تحدّثنا أخيرًا - كان يعرف تمامًا أن الآخر يمثّل الدور ذاته.

في اليوم الرابع، التقينا صدفة في الممر الفاصل بين القاعتين، ذلك الممر الضيق الذي لا مفرّ من عبوره إن أراد المرء الوصول إلى المطبخ المشترك. توقّفنا كلانا

للحظة، كما يتوقّف شخصان اعتادا تفادي بعضهما فجأة يجدان نفسيهما وجهًا لوجه دون سابق إنذار.

قالت، بنبرة حاولت أن تبدو محايدة تمامًا، لكن ارتجافة خفيفة فيها خانتها:

"لم أرَك في القاعة هذه الأيام."

قلتُ، بذلك البرود المُتقَن الذي أتقنتُ صناعته منذ الطفولة كدرعٍ ضد كل من يقترب أكثر من اللازم:

"كان لديّ ما يشغلني في القاعة الأخرى. حالات أكثر... تعقيدًا."

نظرت إليّ بذلك النظر الذي بدأ يُرعبني حقًا، ليس لأنه عدائي، بل لأنه كان يحمل شيئًا أسوأ بكثير: خيبة أمل مكتومة، من ذلك النوع الذي لا يصرخ، بل يذوي بهدوء، كوردةٍ تُترك دون ماء فتذبل دون أن تشتكي. قالت:

"أفهم. الحالات المعقّدة تستحق وقتًا أكبر بالطبع."

كانت جملتها بريئة في ظاهرها، لكنها وأنا أعرف هذا النوع من الجمل جيدًا، فقد اخترعتُ الآلاف منها بنفسي كانت في جوهرها اتهامًا مقنّعًا بلباس التفهّم، سكينًا مُغلّفًا بالحرير.

فكّرتُ في تلك اللحظة، بذلك الصوت الداخلي الذي لا يهدأ أبدًا في رأسي، والذي يُشبه محاكمة مستمرة لا يوجد فيها قاضٍ سوى نفسي، ولا يوجد فيها متّهم سوى نفسي أيضًا: "ها أنت ذا مرة أخرى، تبني الجدران بيدٍ، وبيدٍ أخرى تبكي لأن أحدًا لا يستطيع الوصول إليك. أي نوع من المخلوقات أنت؟ تخشى القرب فتهرب، ثم تخشى الفقدان فتتألم، وكأن قدرك الوحيد أن تكون شاهدًا على تناقضاتك دون أن تملك القدرة على حسم أيٍّ منها."

قلتُ لها، بصوتٍ خفتت فيه حدّة البرود قليلًا رغمًا عني:

"ليست الحالات وحدها المعقّدة."

توقّفت عن السير، والتفتت نحوي بالكامل هذه المرة، وسألت مباشرة، بجرأةٍ لم أعتد أن يُواجهني بها أحد:

"هل تقصدني أنا؟"

كان بإمكاني أن أهرب من هذا السؤال بألف طريقة، فأنا خبيرٌ في الهروب اللفظي كما أنا خبيرٌ في الهروب

الجسدي، لكن شيئًا ما ربما ذلك الجزء الصغير المتمرّد الذي بدأ يكبر بداخلي رغم كل محاولاتي لخنقه دفعني للوقوف في مكاني، ومواجهة سؤالها بدل الفرار منه كعادتي.

قلتُ: "ربما."

كانت كلمة واحدة، صغيرة، هزيلة أمام حجم ما تحمله، لكنها بدت في تلك اللحظة أثقل جملة نطقتُ بها في حياتي كلها.

صمتت لبرهة طويلة، طويلة بما يكفي لأشعر أن الأرض تحت قدميّ بدأت تهتزّ بلا سبب واضح، ثم قالت، بهدوءٍ يشبه هدوء من اتّخذ قرارًا بعد طول تردّد:

"أنا أيضًا ابتعدتُ لأنني أردتُ أن أرى إن كنتَ ستقترب. وأنت ابتعدتَ لتختبر الشيء ذاته، أليس كذلك؟ كلانا يلعب اللعبة نفسها منذ البداية، ولا أحد منّا يجرؤ على الاعتراف بأنه خسرها."

لم أُجب فورًا. وقفتُ هناك، في ذلك الممر الضيق الذي فجأة بدا لي أوسع من أي قاعةٍ عبرتها في حياتي، أُحدّق فيها بينما تتصارع بداخلي رغبتان متناقضتان تمامًا: رغبة في الهرب كما فعلتُ دائمًا حين يقترب أحدهم من الحقيقة أكثر مما ينبغي ورغبة أخرى، أكثر إلحاحًا

وغرابة، في أن أقف هناك إلى الأبد، دون أن أتحرّك، دون أن أهرب، فقط أنظر إليها وهي تنتظر جوابًا لم أكن أملك الشجاعة الكافية لصياغته بعد.

قلتُ أخيرًا، بصوتٍ لم أتعرّف عليه تمامًا، وكأنه يخرج من مكانٍ في داخلي لم أزره منذ سنين:

"ربما كلانا خسر منذ اللحظة التي بدأنا فيها نحسب كل خطوة."

ابتسمت، ابتسامة حزينة هذه المرة، لا تشبه أيًّا من ابتسامتها السابقة، وقالت:

"أو ربما كلانا كسب شيئًا لم يكن يتوقعه، وهذا ما يُخيفنا أكثر من الخسارة نفسها."

ثم مرّت من جانبي، ببطء، وكأنها تمنحني فرصة أخيرة لأقول شيئًا يوقفها، لكنني كعادتي، كملعوني الأبدي في كل لحظة تستحق الشجاعة بقيتُ صامتًا، أراقب ظهرها يبتعد في الممر، بينما صوتٌ داخلي، ساخر كعادته، لكنه هذه المرة يحمل مرارة لم أعهدها فيه من قبل، يهمس لي: "ها أنت ذا، أيها البطل المزعوم، وقفتَ أمام أصدق لحظة في حياتك، وفعلت ما أتقنته دومًا: لا شيء."

جاء اليوم الأخير كما تأتي الأشياء التي نخافها دائمًا: بلا إنذارٍ حقيقي، رغم أننا كنا نعدّ له منذ أسابيع، كأن العقل يرفض أن يُصدّق النهايات حتى تقف أمامه عاريةً لا لبس فيها.

جُمعنا جميعًا في القاعة الرئيسية، حيث بدأت كل هذه القصة، وكأن القدر إن كان هناك قدر حقًا، وأنا أشكّ في ذلك دومًا إلا حين يُريحني الشك أن أُلقي باللوم على شيء أكبر مني أراد أن يُغلق الدائرة من حيث فتحها، بسخريةٍ لا تخلو من قسوة. تحدّث المشرف عن "رحلة شهرٍ من النمو المشترك"، عن شهادات ستُوزَّع، عن أمل أن "نحمل معنا ما تعلّمناه"، وكل تلك العبارات المعلّبة التي تُقال دائمًا في النهايات لتُخفي حقيقة أبسط وأقسى: أن الناس يجتمعون، ثم يتفرّقون، وما بينهما ليس سوى وهمٍ مؤقت يُسمّى الألفة.

جلستُ في مكاني المعتاد، وهي لأول مرة منذ أيام الابتعاد المتعمّد عادت لتجلس بجانبي، وكأن كلينا قرّر، دون اتفاقٍ معلن، أن آخر يومٍ لا يحتمل مزيدًا من المسافات المصطنعة.

لم نتحدث كثيرًا خلال الجلسة الرسمية. كانت تنظر أمامها، ويداها متشابكتان في حجرها بتوترٍ لم تُخفِه جيدًا، وكنتُ أراقبها من زاوية عيني كعادتي، أُحصي كل

تفصيلة فيها كما لو كنتُ أُخزّنها في مكانٍ ما بداخلي أعرف بيقينٍ مؤلم أنني سأحتاج إليه لاحقًا، في تلك الليالي الطويلة القادمة التي سأقضيها وحدي كما قضيتُ كل لياليّ قبلها.

حين انتهت المراسم، وبدأ الجميع بالتجمهر، بتبادل الأرقام والوعود الكاذبة بالبقاء على تواصل تلك الوعود التي يعرف قائلوها منذ اللحظة الأولى أنها لن تُنفَّذ خرجنا، هي وأنا، إلى الممر الخارجي ذاته الذي شهد أول حوارٍ حقيقي بيننا، وكأن أجسادنا، بذاكرتها الخاصة، قادتنا إلى هناك دون تفكير.

وقفنا في صمت طويل، من ذلك النوع الذي يزن أكثر من أي كلام.

قالت أخيرًا: "إذن... هذه هي النهاية."

قلتُ، وأنا أُشعل سيجارة لم أكن أحتاجها فعلًا، بل احتجتُ فقط إلى ما يُلهي يديّ عن الارتجاف:

"كل الأشياء تنتهي. هذا ليس اكتشافًا جديدًا."

نظرت إليّ بحدّةٍ لم أعهدها فيها، وقالت:

"لماذا تفعل هذا دائمًا؟ لماذا تُحوّل كل لحظة يمكن أن تكون صادقة إلى جملة فلسفية باردة تُغلق بها الباب في وجه أي شعور؟"

شعرتُ بشيءٍ يتصدّع بداخلي، تصدّعًا صامتًا لا يُسمع له صوت، لكنه يهزّ الأساسات كلها. قلتُ، وقد بدأت نبرتي تفلت من قبضتي المعتادة:

"لأنني لا أعرف طريقة أخرى. طوال حياتي، كل مرة اقتربتُ فيها من شيءٍ حقيقي، تعلّمتُ أن أُبعده بيدي أنا، قبل أن يُبعدني هو، فالأمر أقل إيلامًا حين يكون الاختيار اختياري."

قالت، وقد بدأت عيناها تلمعان بشيءٍ يشبه الدموع التي ترفض أن تسقط:

"لكنني لم أكن سأُبعدك. ألم يخطر ببالك هذا الاحتمال ولو لمرة؟"

كانت تلك اللحظة، يا عزيزتي، أقسى لحظة عشتُها في ذلك الشهر كله، بل ربما في سنواتٍ طويلة قبله. لأن السؤال لم يكن سؤالًا عابرًا، بل كان مرآة وُضعت أمامي بلا رحمة، تعكس كل جبني المُقنَّع بالبرود، كل هروبي

المُموَّه بالفلسفة، كل تلك الأشهر لا، تلك السنوات التي أمضيتُها أُقنع نفسي أن العزلة اختيار نبيل، بينما كانت، في جوهرها، مجرد خوفٍ لم أملك الشجاعة لتسميته باسمه.

قلتُ، بصوتٍ كاد أن ينكسر، وأنا أشعر لأول مرة أن القناع الذي حملته طوال حياتي بدأ يتشقّق أمامها تحديدًا، في هذه اللحظة تحديدًا، حين لم يعد هناك وقتٌ كافٍ لإصلاحه:

"خطر ببالي. كل يوم. لكن الخطر بشيء واحترافه ومعرفة كيف تتعامل معه أمران مختلفان تمامًا."

اقتربت خطوة، خطوة واحدة فقط، لكنها بدت لي كمسافة قارّة كاملة، وقالت بصوتٍ يكاد يهمس:

"أنا أُحبك. أعرف أن هذا يبدو جنونيًا بعد شهرٍ واحد فقط، لكنني أحببتُك، بكل تناقضاتك، بكل تلك الجدران التي بنيتها ولم أفهم حتى الآن لماذا بنيتها. ولطالما تمنّيتُ لو تخبرني، ولو مرة واحدة، بصدقٍ كاملٍ، ماذا تشعر تجاهي، بلا فلسفة، بلا استعارات، بلا أقنعة."

هنا، يا عزيزتي، وصلتُ إلى تلك اللحظة التي طالما خشيتُها أكثر من الموت نفسه: لحظة الاختيار بين حقيقتين، إحداهما ستُنقذها، والأخرى ستُدمّرني،

وكلتاهما وهذا ما لم تفهميه أبدًا مهما حاولتُ لاحقًا أن أشرحه كانتا صادقتين في آنٍ واحد.

الحقيقة الأولى: أنني أحببتُك. أحببتُك بطريقةٍ لم أظن أن جسدي المريض، روحي المشوّهة، قادرة على احتوائها. أحببتُك في كل لحظةٍ تظاهرتُ فيها باللامبالاة، في كل ابتعادٍ متعمّد كان في جوهره محاولة يائسة للهروب من حجم ما أشعر به، لأن الحب كما اكتشفتُ متأخرًا كان بالنسبة لي أخطر من أي شيء آخر واجهته في حياتي، لأنه الشيء الوحيد الذي لا أملك عليه سيطرة، ولا أملك له تفسيرًا باردًا أُخفي خلفه ضعفي.

والحقيقة الثانية، الأقسى، والتي اخترتُ بجُبنٍ يستحق كل اللعنات أن أقولها لكِ بدلًا من الأولى: "أنا شخص مريض. ليس مجازًا، بل حرفيًا. هناك شيء في داخلي مكسور منذ الطفولة، شيء لا أفهمه تمامًا، لا يسمح لي أن أُحب أحدًا دون أن أُدمّره في الوقت ذاته. أنتِ سليمة، أنتِ نقية بطريقةٍ لا تعرفين حتى قيمتها، وأنا... أنا لستُ سوى ظلٍّ سيبتلع كل ضوءٍ تحمليه إن سمحتُ لنفسي بالبقاء بجانبك. لهذا ابتعدتُ. ليس لأنني لا أشعر، بل لأنني أشعر أكثر مما ينبغي، وأعرف بيقينٍ لا يرحم أن ما بداخلي سيلتهمك يومًا، كما التهم كل شيءٍ اقترب مني من قبل."

كانت الدموع الآن تنهمر بحرية على وجهها، ولم تحاول إخفاءها هذه المرة، وقالت بصوتٍ مخنوق:

"هذا ليس عدلاً. لا تحكم على نفسك بدلًا مني، دعني أنا من يقرر إن كنتُ أستطيع تحمّل ذلك أم لا."

قلتُ، وقد شعرتُ بشيءٍ يتكسّر بداخلي كزجاجٍ رقيق سقط أخيرًا بعد أن ظل معلّقًا على حافةٍ لسنين:

"لا أستطيع أن أمنحكِ هذا الخيار، لأنني أعرف نفسي أكثر مما تعرفينني أنتِ.

سأُحبك اليوم بصدق، وغدًا سأبتعد لأختبر إن كان حبك حقيقيًا، وبعد غدٍ سأعود نادمًا، وسأُكرر هذا حتى أُفرغك من كل معنى الحب الذي تحملينه، لا لأنني أريد أذاك، بل لأن هذا كل ما أعرف كيف أفعله. أنا لا أختار الأذى، يا عزيزتي، الأذى يختارني، ويسري في يديّ كلما اقتربتا من شيءٍ جميل."

وقفت أمامي، منكسرة، غاضبة، محبّة، وكارهة في آنٍ واحد وهذا بالضبط ما جعل تلك اللحظة أصدق ما عشتُه معها على الإطلاق وقالت أخيرًا، بصوتٍ هادئ بردٍ مخيف، أشد إيلامًا من أي صراخ:

"إذن، دعني أخبرك بشيء أخير: لستَ أنت من أنقذني من شيء، ولا أنا من كنتُ سأُنقذك. كنّا فقط شخصين هربا من وحدتهما لشهرٍ واحد، وسمّينا هذا حبًا لأننا احتجنا اسمًا لما شعرنا به. ربما أنتَ محق. ربما أنتَ فعلًا لا تصلح لأن تُحب أحدًا، لكن ليس لأنك مريض كما تدّعي، بل لأنك تُفضّل أن تكون كذلك على أن تكون شجاعًا."

ثم استدارت، ومشت مبتعدة، دون أن تلتفت ولو مرة، ودون أن أُحاول أنا إيقافها، لأنني وهذه هي المفارقة الأخيرة والأقسى في هذه القصة كنتُ أعرف أن كل كلمة قالتها كانت صحيحة، وأن الحقيقة، حين تُقال بهذا الصدق العاري، لا تترك للمرء مجالًا حتى للدفاع عن نفسه.

وقفتُ هناك طويلًا، أُراقب الممر الفارغ الذي ابتلعها، وأشعلتُ سيجارة أخرى بيدين ترتجفان لأول مرة منذ سنين لا أذكر عددها، وفكّرتُ بمرارةٍ لا تُضاهيها مرارة أنني ربحتُ كل معاركي الصغيرة معها: نجحتُ في جعلها تشك، نجحتُ في جعلها تسأل، نجحتُ في إبقاء اللغز قائمًا حتى النهاية تمامًا كما خطّطت... وخسرتُ الحرب الوحيدة التي كانت تستحق أن أخوضها.

عزيزتي، أكتب لكِ هذه الرسالة اليوم، بعد أسابيع من ذلك اليوم الأخير، لا لأطلب عودتك فأنا أعرف أن هذا لن يحدث، ولا يستحق أن يحدث بل لأعترف، ولو متأخرًا، ولو في رسالةٍ لن تصلك أبدًا، أنكِ كنتِ محقة في كل كلمة. لم أكن مريضًا بالطريقة التي زعمتها لكِ كدرعٍ أخير أختبئ خلفه، كنتُ فقط جبانًا يرتدي قناع المرض

ليبرر لنفسه ما لم يجرؤ يومًا على مواجهته: أنني، وسط كل هذا الظلام الذي اخترتُ أن أعيش فيه، كنتُ أخاف الضوء أكثر مما أخاف أي شيء آخر، وأنتِ، يا عزيزتي، كنتِ أقرب ضوءٍ اقترب مني في حياتي كلها.

والآن، أعيش وحدي كما اعتدتُ دائمًا، لكن هذه المرة الوحدة لا تشبه سابقاتها؛ فهي وحدةٌ تعرف تمامًا ما الذي خسرته، وهذا كما اكتشفتُ متأخرًا كعادتي في كل شيء أقسى أنواع الوحدة على الإطلاق.